ديوان "حكمة" لبول ڤيرلين

بقلم

الدكتور علي درويش

مدرس الأدب الفرنسي بجامعة عين شمس

لعل بول ڤيرلين Paul Verlaine من النماذج البشرية التى لا تهم الأدب فحسب ، والشعر بمعنى أصح — لأنه ترك فيه صوتاً خالداً لا يكف عن الترنيم بطريقة لم تعهدها الآذان من قبل — وإنما لا جدال فى أنه يقدم من نفسه مادة خصبة لدراسة نفسية عميقة ، وربما أيضاً مادة أخصب لتحليل نفسى يبدأ من علامة استفهام محيرة ، وينتهى بعــلامة تعجب تعبر عن الرثاء ، ماراً فى سرداب طويل ولكن السير فيه لا يُمل ، مظلم ولكن الأضواء الشاحبة أو الباهرة التى تسلط على جوانبه وخباياه تشيع فى نفس الباحث متعة لا جدال فيها ... ولكن حذار ! فليس ما ينبغى أن يثير من هذه الدراسات هو ڤيرلين الرجل ، وإنمــا ڤيرلين العبقرى ؛ أو — إن جاز التعبير — « لعبــة الشذوذ والعبقرية » ! ... ونحن نقصد الشذوذ بمعناه العام ، فسوف نرى فى حياة ڤيرلين نوعاً من الشذوذ بمعناه الخاص أيضاً ! ؛ وإن كنــا سنحرص على ألا نذكره إلا تلميحاً بالرغم من أنه يكوّن حدثاً جوهرياً من أحداث حياته .. ذلك لأننا لسنا من أنصار « أدب القمامات » ! .. أى أننا لن نصنع من هذا الحدث وجبة غذائية نقدمها إلى فضول أنصار النبش فى الغرائز الشاذة . إذن فالعلاقة المنحرفة التى ربطت فى أحد أطوار حياة ڤيرلين بينه وبين الشاعر رامبو (Rimbaud) يستطيع من يريد الإطلاع عليها أن يفتش عنها فى غير هذا المكان :

ولد ڤيرلين فى عام ١٨٤٤ بمدينة «ميتز» (Metz) ، وأتى إلى باريس وهو فى السابعة من عمره ، حين استقال والده من وظيفته فى الجيش .. وأتم دراسته الثانوية « بليسيه بونابرت » فالتحق بمدرسة الحقوق .. وظهرت مواهبه الشعرية وهو فى سن مبكرة ، إذ من المعروف انه بعث بباكورة محاولاته وهو فى الرابعة عشرة من عمره إلى ڤيكتور هوجو .. ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة حتى كان قد التقى بمشاهير شعراء المدرسة « البرناسية » أمثال « بانڤيل » (Banville) و « كوبيه » (Coppée) .. وفى عام ١٨٦٤ (عمره عشرون عاماً) عين نساخاً فى دار عمودية القسم التاسع بباريس ، ثم فى دار المدينة (Hôtel de Ville) .. إلا أن مواهبه الأدبية كانت تزهده فى عمله الرسمى ؛ فكانت مواظبته عليه أقل من مواظبته على حضور الاجتماعات التى يعقدها البرناسيون ، الذين أفسحوا له المجال فى صحيفتهم « البرناس المعاصر » (Parnasse contemporain) .

وفى عام ١٨٧٠ تزوج من « ماتيلد موتيه » (Mathilde Mauté) التى كان قد عرفها قبل ذلك بثلاثة أعوام .. وحين حدا إعجاب «رامبو» به كشاعر (١٨٧١) إلى أن يكتب إليه ، رد عليه من فوره فى رسالة شهيرة يقول فيها : « تعالى أيتها النفس العالية العزيزة .. إنى أتمناك .. إنى أنتظرك » .. وبالتقاء الشاعرين يبدأ الطور العابث فى حياة ڤيرلين ، التى تنقلب رأساً على عقب.. إنه يضحى من أجله بزوجته ؛ ثم يتصالح معها ؛ ثم يرحل مع « رامبو » إلى باچيكا، ثم إلى انجلترا ! (١٨٧٢) ... ولكن ينشب بينه وبين صديقه نزاع عنيف : إنه لم يستطع أن ينسى زوجته ، وهو يغادر لندن ورامبو فجأة إلى بروكسل (٤ يوليو ١٨٧٣) . ومن العاصمة البلچيكية يبعث إلى «ماتيلد» ببرقية يناشدها فيها أن تلحق به ، ويكتب فى نفس الوقت إلى أمه مؤكداً لها أنه لن يُحجم عن الانتحار إن أبت زوجته العودة إليه .. وهنا يسرع رامبو فيلحق به فى بروكسل (١٠ يوليو) ، ويحتدم الخلاف بينهما من جديد ، فيخرج ڤيرلين عن طوقه ويطلق على صاحبه رصاصتين تصيبانه بجراح طفيفة .. وتقبض السلطات البلچيكية على الجانى ثم تحكم عليه بالسجن عامين .. وتدرك « ماتيلد » أن الحياة لم تعد ممكنة مع زوجها الشاذ الذى يكفِّر عن أحدث جرم له فى سجون بلچيكا، فتلتمس من محكمة باريس الحكم بالانفصال ، وتظفر بما تريد ؛ وهنا يدب فى نفس ڤيرلين يأس ممض تتمخض عنه عودة إلى الإيمان .. ثم يغادر ڤيرلين السجن (١٨٧٥)، ويحاول عبثاً أن يسترضى زوجته وأن ينال منها الصفح .. ثم يلحق برامبو فى ألمانيا (Stuttgart) ، ويُخفق فى حضه هو الآخر على الإيمان ، فيرحل إلى انجلترا حيث يعمل مدرساً فى (Stickney) .. وبعد ذلك بعامين يتعلق بتلميذ له من (Rethel) يُدعى «لوسيان ليتينوا» (Lucien Létinois) ؛ ثم يتعاون معه على الإشراف فى « كولوم » (Coulommes) على مزرعة ينتهى حالها إلى التدهور .. وفى عام ١٨٨٢ يشتغل بالتدريس فى (Boulogne-sur-Seine) على مقربة من باريس ؛ ثم يشترى مزرعة فى « كولوم » (١٨٨٣ — ١٨٨٤) ... وليس من شك فى أن القطيعة بينه وبين زوجته كان لها دخل كبير فى القضاء على فاعلية الرغبة الصادقة فى الصلاح ، التى كانت تحدوه فى ذلك الوقت .. إنه الآن ينكب من جديد على الشراب ، وينغمس فى موجة من الفسق .. ويحدث ذات يوم أن يحاول وهو ثمل قتل أمه ، فيُقضى عليه بالسجن عدة أشهر .. وفى عام ١٨٩٤ يُنتخب أميراً للشعراء خلفاً لـ « لوكونت دى ليل » (Le Conte de Lisle) فتكتب صحيفة « القلم » (La Plume) تعليقاً على هذا الاختيار تقول فيه: « .. إنه تكريم لإنتاج حققه، لا تحديد لدور يستطيع أن يقوم به فى ميدان الشعر المعاصر .. ذلك لأنه — كما شاهدنا — قد انفصل انفصالا واضحاً عن هؤلاء الذين كانوا يهدمون جميع الحواجز .. » .. ويدنو « ڤيرلين » من نهايته ، ويئن من وهدة البؤس ، فتمنحه وزارة التعليم إعانةً قدرها خمسمائة من الفرنكات .. وفى ٨ يناير ١٨٩٦ تحين منيته ، فيشترك فى تشييع جنازته كبار الكتاب والشعراء؛ ويلقى « كوپيه » (Coppée) و « مالارميه » (Mallarmé) و « موريا » (Moréas) كلمات تأبين، كما يلقى « موريس باريس» Maurice Barrès كلمة على قبره باسم الشباب .

تلك هى أهم أحداث حياة بول ڤيرلين . ليست لها مع ذلك قيمة تذكر بالنسبة لإنتاجه — باستثناء ارتباطه

برامبو — إذا هى لم تُستعرض فى ضوء أبرز ملامح شخصيته وأوضح مظاهر سلوكه . ولعل من أهم هذه الملامح ضعف ارادته الذى يثير الاشـفاق ، وافتقاره إلى نظام خلقى بشكل يدعو إلى الرثاء . وهذان العنصران هما اللذان جعلا منه ضحية ولعبة فى أيدى الاحداث والناس ... إذا كان قد عرف حياة البؤس والصعلكة فى الطرقات والمقاهى ، وإذا كان قد أجبر على دخول السجن بين الحين والحين ، وإذا كان انحرافه قد جر عليه تلك الأوامر المشددة التى تحظر عليه حظراً تاماً الاتصال بابنه التلميذ « بليسيه كوندورسيه» (Lycée Condorcet) .. فلأنه كان مشتتا بين انتفاضات الايمان ونزغات الجسد ، فانتهى به الأمر إلى أن يعيش عبداً لغرائز يُرثى لها .. على أن كل هـذا الذى عاناه هو الذى أدى إلى خلق مقومات الشعر الڤيرليني .. ڤيرلين كانت له نفس نادرة أتاحت له أن يعيش فى حلم إلهى فى حين كان جسمه يئن من شتى أنواع البؤس .. ومن هذا التناقض يخرج ذلك الشعر المجنـح الذى ينقلنا إلى عالم غريب ينسينا الواقع المرير ، فنسعد ونحن نقرؤه أو نسمعه — إنشادا أو غناءً — بنسيان آلامنا وهمومنا .

* * *

سنتحدث بعد حين عن فن ڤيرلين : ولكن لا بأس من أن نشير الآن إلى أهم انتاجه :

— « أشعار زُحلية » (Poèmes saturniens) — ١٨٦٦ .

— « أعياد تفيض بالحب » (Fêtes galantes) — ١٨٦٩ .

وهذان الديوانان من وحيٍ نصفه برناسى ونصفه بودليرى ، وقد كتب الأخير إبان خطبتـه على « ماتيلد موتيه » .

— « الأغنية الجيدة » (La Bonne Chanson) — ١٨٧٠ .

— « وجـدانيات لا تعرف الكلمات » (Romances sans paroles) — ١٨٧٤ ؛ وقد نشره بمعاونة أحد أصدقائه ، وهو الذى لفت الأنظار إليه : كان ڤيرلين فى السجن ، فكتب « اميل زولا » (Emile Zola) يقول : « إن ڤيرلين — وهو الآن غائب فى بلجيكا — بدأ بدايته متألقة بـ «أشعار زُحلية» .. إنه إحدى ضحايا بودلير ، بل يقال إنه اندفع فى تقليد أستاذه إلى حدٍ أفسد عليه حياته .. » :

— « حكمة » (Sagesse) — ١٨٨١ .

— « أشعار لعينة » (Poèmes maudits) — ١٨٨٤ ، وهى بالإضـافة إلى « فن الشعر » (Art Poétique) تجعـل منه حامل علم المدرسة الرمزية .

— « حب » (Amour) — ١٨٨٨ :

— « على التوازى » (Parallèlement) — ١٨٨٩

— « اهداءات » (Dédicaces) — ١٨٩٠

— « سعادة » (Bonheur) و « أغانى من أجلها » (Chansons pour Elle) — ١٨٩١ :

— « مرثيات » (Elégies) — ١٨٩٤ :

يقول « چول لوماتر » (Jules Lemaître) عن هذا الانتاج الشعرى : « إنه ترجمة لحالة نفسية فى كثير من الأحيان ، ولا يمكن إلا أن يكون صادراً عما يشبه الثمالة ، وهو وهمٌ يغير شكل الأشياء فيجعلها شبيهة بحلم مفكك ، وامتعاض نفسٍ تطلق كالطفل أنينا فى موجة الخوف من المعميات ... ثم هو ينم عن ضعف صوفى ، وسكينة تشيعها الفكرة الكاثوليكية عن العالم ، وتَتَمَبّلٍ لهذه الفكرة بسذاجة مطلقة » . . ونحن

وإن كنا نرى أن هذا الحكم الاجمالى يسمعنا فعلا كثيرا من النغمات التى تنطلق من أشعار « ڤيرلين » ، شاعر الحب والألم والموسيقى ، إلا أننا نفضل هذه الكلمات المعدودات التى يقترحها « اندريه دينار » (André Dinar) علماً على مجموعة انتاج ڤيرلين : سمو الطبيعة البشرية وعبوديتها » (Grandeur et servitude humaines) . نحن نعتبر هذه العبارة على اقتضابها جامعة مانعة ؛ انها — لو تأملناها — كفيلة بأن تجعلنا نحكم على الشاعر حكماً ذا شطرين : شطر يشيد بجوانب عبقريته ، وشطر مترفق يشفق على جوانب ضعفه البشرى .. هذه هى الحقيقة ، ولكن أيحب الناس الحقيقة ؟ — لا ، وهذا أيضاً مظهر من مظاهر الضعف البشرى .. من المؤكد أن ڤيرلين قد عانى منه — أكثر ماعانى — فى الخفاء ، أو حاول أن يغرق صداه فى جوفه بما كان يصبه فيه من كؤوس النبيذ والأبسانت . . أما « سانت بيف » (Sainte-Beuve) فلم يكن ثملا ، وهو يستطيع أن يقول لنا فى أنة رثاء للبشرية : « إن الناس عادة لا يحبون الحقيقة ؛ والأدباء أقل حباً لها من غيرهم .. انهم — على العكس — مولعون بالهجاء .. هم يشعرون بأقصى درجات المشقة فى تقبل الحقيقة ، وهى هذه المجموعة غير المرتبة من المزايا والعيوب ، من الفضائل والرذائل ، والتى تشكل الشخصية الانسانية .. إنهم يرون فيمن يحكمون عليه ملاكا صرفاً أو شيطاناً من جميع الوجوه » !

* * *

الرمزية ليست أسهل تحديداً من الرومانسية ؛ فلقد كانت اتجاهاً أكثر منها مذهباً محدداً . وهى تطلق عادة على الفترة التى أعقبت اضمحلال المدرسة الطبيعية ، والتى جاءت كرد فعل لأربعة عوامل أو خمسة على الأقل : لقد كان جيل الشباب الذى ظهر حوالى عام ١٨٨٠ ضجراً من فن فيكتور هوجو الذى كان يعتمد على الألفاظ الفخمة الطنانة ، والذى أصابه الهرم .. ضجراً من نثر الطبيعيين الذين كانوا يقدمون فى قصصهم لوحات عنيفة تعتمد على وسائل مفرطة فى الواقعية بحيث يمكن تسميتها « بالفوتوغرافية » .. ضجراً من الأفكار الصارمة التى تميز شعر البرنانسيين أمثال « لوكنت دى ليل » و « بانڤيل » و « سولى برودوم » (Sully Prudhomme) . . ضجراً من آثار التقدم العلمى الذى أثر فى جميع المجالات بما أتى به من يقين جاف لم يدع أى فرصة للخيال والغنائية .. ضجراً من العقلية الوضعيــة التى سيطرت على كل النصف الثــانى من القرن التاسع عشر .... وإذا بهذا الجيل يهب مطالباً بشعر أكثر سيولة ، فيه خيال وموسيقى ، وأقدر على إثارة الانفعال .. ترك هؤلاء الشبــاب العلم والواقعية لاصحابهما ، وبحثوا عن الانتفاضات الرهيفة للذات ، وعن الغموض بوصفه الوطن الوحيد للشعر .. وبحثوا عن زعماء لهم أو على الأقل عن مبشرين باتجاههم ، فوجدوا ضالتهم المنشودة فى « بودلير » الذى يسبر أعماق نفسه المضطربة ، ويكشف عن تجاوبات اخص أنواع الأحاسيس .. وفى « مالارميه » (Mallarmé) و « ڤيرلين » ... أما بودلير فكان قد توفى فى عام ١٨٦٧ ؛ وأما « مالارميه » و « ڤيرلين » فصحيح انهما كانا ينتميان إلى المدرسة البارناسية ، ولكنهما الآن يديران إليها ظهريهما ... الزعامة إذن مفتوحة أمام هذين الشاعرين الكبيرين ... أما الأول فكانوا يصغون إليه فى تلك الحلقات الأدبيــة التى يعقدها يوم الثلاثاء من كل أسبوع فى بيته بشارع روما بباريس ؛ وأما الآخر فكان تأثيره فيهم أعمق بالرغم

من أنه لم يكن يعقد اجتماعات ، لأن فمه فى شغل مع الكؤوس، ولأن أذنه منهمكة فى الاستماع إلى الموسيقى الصادرة من أعماقه : من هنا كان ڤيرلين أحق بالزعامة ؛ ومن هنا يُعتبر — كما قلنا — حامل علم الرمزيين .. وإذا توخينا الدقة قلنـــا إن فنه بلور ما أصبح الرمزية فيما بعد ؛ ذلك لأن الرمزية حين تفتحت كان « ڤيرلين » قد أنتج معظم أعماله .

تصدى الرمزيون لرأى ڤيكتور هوجو عن الشاعر الحق (الذى ذكره فى مقـــدمة ديوانه « أشعة وظلال » (Rayons et Ombres) : « إن المؤلف يعتقد أن كل شاعر حق — بصرف النظر عن الأفكار التى تأتيه من الحقيقة الخالدة — يضم بين جنباته مجموعة أفكار عصره » ... وأرادوا أن يعبروا عن انفعالات ذاتية فى معظم أجزائها ، لا أن يجىء شعرهم مجرد أصداء ؛ ذلك لأن الطبيعة ، بل والأفكار لا تهم بما لها من طابع موضوعى وعام ، وإنما بما تُحدث من صدى فى أعماق الفرد ... ورأوا أن مجال الشعر إن هو إلا تلك المنطقة التى تستعصى على التحليل ، وحيث يتاح للأحاسيس أن تنضج ، وللأفكار أن تجد موسيقاها ؛ فقرروا أن رسالته تعتمد لا على الإفهام وإنمـــا على التلميح ... وهكذا ظهرت فكرة الرمز بوصفها أقوى أداة للتلميح : هذا الرمز قد يكون مقارنة طويلة أو قصيرة ، ولكن بحيث يجىء التشبيه دافعاً إلى التخمين — بمحاولة الاستشفاف — لا أن يعبّر عنـــه تعبيراً صريحاً ؛ الأمر الذى يحتم على خيال القارىء بذل جهد يعود عليه باللذة !

وعاب الرمزيون على اللغـــة والأوزان التقليدية افتقارها إلى المرونة التى يتطلبهـــا التعبير بالدقة عن الانطباعات المعقدة ، ورأوا — حلا لهذه المشكلة — ضرورة ابتكار كلمات جديدة ، وإحياء كلمات قديمة ، واستعارة ألفاظه من جميع اللغات الأخرى ، والاهتمام الكبير بموسيقية البيت ، وبالتالى بجرس الألفاظ : وهكذا يصبح الوزن سيدا ، ويحق للشاعر أن يتخير مايروقه من الأوزان ، ويصبح بيت الشعر طليقاً من كل قيد :

واعترفوا بأن هذه المهمة عسيرة ؛ ولكنهم رأوا أنه لا مجال بينهم للوضوح الذى تميزت به الكلاسيكية ! بل ان بعض الرمزيين أعلنوا أن الغموض من شأنه أن يكون مظهراً من مظاهر حياء الشاعر ، وأنه — على كل حال — الضريبة التى لابد منها للفن الحديث ، وعلامة من علامات سموه .

وتولى « جان موريا » (Jean Moréas) صياغة بيان المدرسة الجديدة الذى نشره فى الثامن عشر من سبتمبر عام ١٨٨٦ فى صحيفة « فيجارو » (Figaro) . ولوحظ أن كثيراً من الآراء الجديدة مستمد من « فن الشعر » لڤيرلين ... ونشرت صحيفة « الانتكاسى » (Le Décadent) — أحد ألسنة حال المدرسة الجديدة مقالا تمتدح فيه الشاعر ، وحاول « موريا » فى صحيفة « الرمزية » (Le Symbolisme) أن يجنده فى هذه المدرسة ، ولكن « ڤيرلين » كان يدرك أن الرمزيين ذهبوا إلى أبعد مما كان يتوقع فى تحررهم من القيود ، ويشعر بصدمة من جراء الأساليب البهلوانية — فى مجالى الوزن واللغة — التى عمد إليهـــا أمثال « موريا » و « رينيه جيل» (René Ghil) والتى كانت تتعارض مع ما يمتاز به فنه من اتزان ووضوح واعتدال لا يبيح ذلك الغلو المفرط الذى يستتر وراء الدعوة إلى شعر متحرر من قيود هى فى واقع الأمر المقومات الأصيلة للشعر بالمعنى الصحيح .. كان « ڤيرلين » قد كتب « فن الشعر » فى عام ١٨٧٤ ، ولكنه لم ينشره — فى « باري مودرن» (Paris Moderne) — الا فى عام ١٨٨٢ . ويبدو أنه أحس أن أنصار الاتجاه الجديد يحرصون على اســـتغلال ما كان قد نادى به فى « فن

الشعر » هذا استغلالا يخرجه عن الإطار الذى رسمه فيه ، فهب يدافع عن القافية فى مقال يضع الأمور فى نصابها ويجنبه هوتبعة التحرر البهلوانى الذى بدأ يتفشى بين هؤلاء الشعـــــراء الذين أطلقوا على أنفسهم « الانتكاسيين » (Décadents) ؛ يقول فى هذا المقال : « لتلاحظوا قبل كل شىء أن القصيدة المعنية (فن الشعر) مقفّاة بطريقة جيدة .. إن فخرى بأنى كنت أكثر البرناسيين تواضعاً — هؤلاء البرناســيين الذين يثار اليوم حولهم جدل طويل — إن فخرى هذا أكبر من أن يحضنى فى وقت من الأوقات على إنكار ضرورة القافية بالنسبة للشعر الفرنسى .. انى لا أحرص إلا على الاعتزاز ببودلير الذى آثر دائماً القافية النادرة على القافية الغنية » . ثم ذهب إلى أبعد من ذلك حين نظر بذعر إلى التطور المطرد فى الاتجاه الجديد فى الشعر الحر فلم يتورع عن أن ينبذ تلك الآراء التى كان قد سجلها فى « فن الشعر » : يقول فى إحدى قصائده :

* ليشغل طموح الشعر الحر
* عقولا شابة مولعة بالمخاطر !
* انها حمية وهم مثير
* ولا يملك الانسان إلا أن يبتسم لانحرافاتهم

وظل القلق يساوره على مصير الشعر ، فكتب فى « الانتكاسى » مقالا يعترف فيه بأخطائه — التى لم تتجاوز حدود القول — عن القافيـــة ، ويندد بالمغالاة التى توشك أن تجر على الشعر الفرنسى عواقب وخيمة : يقول : « « ضعوا فى شعركم قافية ضعيفة ، أعمدوا إلى الجناس ، ولكن لا تغفلوا القافية والجناس .. إن الشعر الفرنسى لا يصبح شعرا بدونهما » .. ويقول فى مكان آخر : « لكى يكون هناك شعر فلا بد من وزن ... يوجد فى الوقت الحاضر من ينظمون شعرا « له ألف رجل » ! .. ليس هذا شعرا ، وإنما هو نثر .. وهو فى بعض الأحيان ليس سوى كلام يستحيل فهمه ... »

ثم يطلق هذه الصيحة التى ينبذ فيها هؤلاء الذين يتشدقون بالتتلمذ عليه : « لقد كان لى تلاميذ ، ولكنى اعتبرهم تلاميذ متمردين » ... ماذا كانت نتيجة تلك المناقشات الأدبية ؟ — منذ ذلك الوقت والنقد لم يعد يهمل شأن « ڤيرلين » .

* * *

حين ظهر ديوان « حكمة » فى عام ١٨٨١ كان « ڤيرلين » قد ظل منسياً أو شبه منسى خلال عشرة أعوام أو يزيد .. كم تجشم من متاعب من أجل العثور على ناشر له ، قبل أن يوفق فى إقناع الكاثوليكى « بالميه » (Palmé) بنشره ! .. طُبع منه خمسمائة نسخة لم تصادف قبولا لدى القراء ؛ وبلغ من تثبط عزيمة الناشر أنه لم يحاول « تصريفها » وإنما تركها حبيسة « الرفوف » . واضطر « ڤيرلين » إلى أن يصيغ بنفسه تعليقاً على ديوانه الجديد ، وأن يسعى من أجل نشره فى بعض الصحف . . . ولم تضع كل جهوده سدى : جاء فى هذا التعليق ما يلى : « إن الكاتب « بول ڤيرلين » المعروف فى الأوساط الأدبيــة بكتبه التى أحرزت نجاحاً كبيراً لدى هواة الشــعر الحقيقى يقدم هذه المرة نوعاً جديداً كل الجدة .. لقد عاد باخلاص وصراحة إلى مشاعر الإيمان الصحيح . وهو يستخدم اليوم مواهبه الحيوية فى معـــالجة موضوعات كاثوليكية .. لا شىء تافه فى هذه الأشعار التى يثير فيها أدق مشاكل النفس والضمير . . إن بعض صيحات السخط تنطلق بين الحين والحين من قلبه الكاثوليكى وهو ينظر إلى ما سنتكبده فى هذه الأزمنة التعسة . . وإن ما للديوان من شكل بارع ليحفظ له طابعه الأدبى الرفيع الذى يكفل له نجاحاً كبيراً ... » كان هذا التأكيد الملىء بالثقة صادقاً ، ومع ذلك لم يأت بثمرة سريعة تُذكر ، ذلك لأن ماضى الشاعر المنحرف كان لا يزال يبعّد بينه وبين

الجمهور ... حتى المقدمة التى صدَّر بها الديون لم توفق فى استدرار العطف عليه : يعترف بأنه كان قد هام فى فساد العصر ، وأنه أخذ نصيبه من الآثام والعار فلا يُقنِـع أحداً .. يعلن أن إيماناً راسخاً صار يشيع فى نفسه فلا يصدقه إنسان ... ولكن ألم نقل إن صيحاته اليائسة ظلت حبيسة المكتبة ؟ .. لنستمع الآن إليه ، فنحن أقدر من مواطنيه على فهمه فهماً موضوعياً : « .. إن ما شعر به من أحزان يستحقها كان بمثابة إنذار له ؛ ولقد تفضل الله عليه بفهم هذا الإنذار .. إنه سجد أمام المذبح الذى كان قد تجاهله زمناً طويلا .. إنه يعبد الله الكريم ، ويبتهل إلى الله القوى العزيز ... وهو الإبن الخاضع للكنيسة : أقل الناس استحقاقاً وإن كان مليئاً بالرغبة الصـادقة . . . إن شعوره بالضعف ، وذكرى سقطاته قد قاداه إلى إعداد هذا الكتاب الذى هو أول دليل عام على الإيمان بعد صمت أدبى طويل .. لقد نشر المؤلف فى صباه – أى منذ عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة – أشعاراً تنم عن شك وطيش تعس ؛ وهو يجرؤ على الأمل فى ألا تصدم الأشعار التى يقدمها اليوم أية أذن كاثوليكية ؛ فسوف يكون ذلك تحقيقاً لما يتوق إليه من مجد ، ولأعز ما يحدوه من آمال » .

والغريب أن أصدقاء الشاعر أنفسهم ساورهم الشك فى عمق هذا الإيمان ، وحسبوا أن الديوان «حكمة» ليس إلا صدى لفورة نفسية طارئة . وتواترت الإشاعات ، وكان من بين مروجيها صديق له يُدعى « لوبيليتييه » (Lepelletier) ، فرد عليه « ڤيرلين » فى لاريڤى باريزيان (La Revue Parisienne) (٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٣) يقول : « .. إنى ساخط – فى وداعة كاثوليكية مع ذلك – على قوله إن ديوانى « حكمة » ضربٌ من المزاح ، لاسيما أنه يعرف أين ومتى كتبت بالعبرات والآلام هذا الكتاب الذى حاولت أن أضع فيه كل نفسى » . . . لا ينبغى مع ذلك أن نعمم ، فها هو صوت رجل من رجال الدين يدل على أن صاحبه يشعر بما فى الديوان من إيمان خالص ؛ نستطيع إذن أن نصدقه : إنه صوت الأب « پاشــو » (Pacheu) ، ولقد سجله فى كتابه « من دانتى إلى ڤيرلين » (De Dante à Verlaine) ، يقول : «كل شىء فيــه (الديوان) صادر عن وحى كاثوليكى صرف » .

ولا يتأخر الإنصاف عن الظهور فى الأفق : يأتى فى العام التالى حدثٌ يؤدى إلى لفت الأنظار إلى قيمة إنتاج الشاعر العبقرى ، قيمة « حكمة » وما سبقه من دواوين : يتعاون « ڤيرلين » مع مجلة ذات اتجـاه برناسى هى « بارى مودرن » (Paris Moderne) ، وينشر فيها « فن الشعر » .. وإذا بمجلات الشباب – وكانت فى البداية مناهضة له – تتقبل هذه الأشعار باهتمام . من هذه المجـلات « لانوڤيل ريف » (La Nouvelle Rive) و « لوشـــانوار » (Le Chat Noir) ... ونحن نقرأ فى هذه الأخيرة ما يلى (فبراير ١٨٨٣): « إنه يبحث عن الجديد .. إنى لا أدرى أى فن هذا الذى يجمع فى غموض بين الشعر والتصوير والموسيقى . . . إنه شىء شبيـه بكونسرتو بالألوان ، وبلوحة مكونة من أنغام » .

إن الإنصاف ينادى الإنصاف ! .. نحن الآن فى عام ١٨٨٨ : « چول لوماتر » (Jules Lemaître) – وهو أحد أعلام النقد – يخرج فى تردد شديد من صمته الطويل ازاء الشعراء الرمزيين .. عمن يجدر به أن يتكلم ؟ – عن ذلك الذى يُعتبر « زعيم الحركة » ، عن « بول ڤيرلين » ... لنستمع إليه وهو يحكم على ديوان « حكمة » فى مقـاله الطويل الذى نشر فى « لاريڤى بلو » (La Revue bleue) (٧ يناير) : « إنه كتاب من أغرب الكتب . وهو ربما كان ديوان

الشعر الكاثوليكى الوحيـــد الذى أعرفه (وأقول الكاثوليكى وليس فحسب المسيحى أو الدينى).. ها هى أبيات تنطق حقيقة بالندم والتقوى والدعاء ... إنها باختصار أكثر أنواع التقوى سذاجة وأشدها إذعانا ... نحن أبعد مانكون عن الكاثوليكية الأدبية ، عن التدين الرومانسى الغامض .. هل تظنون أن قديسا ما اتجه الى الله بكلام أبلغ من كلام « بول ڤيرلين » ؟ — فى رأيى أن هذه هى المرة الوحيدة التى عبر فيها الشعر الفرنسى تعبيرا ظاهراً عن حب الله » .

* * *

صحيح أن النقد الأدبى يعتبر ديوان « حكمه » أروع جزء فى انتاج «ڤيرلين» ، ولكن فى رأينا أن الكلام عن فن هذا الشاعر يجئ مبتورا إذا انصب على هـــذا الديوان وحده، ذلك لأنه طور من أطوار حياته الفنية ؛ فى هذا الطور بلغ ڤيرلين أوج نضجه ، إلا أن الأطوار السابقة شهدت محاولاته الأولى ، والاتجاهات التى أثرت فيه ، وانتفاضات عبقريته التى أرادت أن تفصح عن نفسها بالآراء والتطبيقات ... نحن إذن مضطرون إلى افساح المجال لحديثنا عن فن « ڤيرلين » بحيث ينسحب على كل ماخرج من قلمه .. ذلك لأن هذا الشاعر حين اتجه إلى الله — الى حين — بقلب مفعم بالايمان وبنفس خاضعة تائبة ، لم يتخلص من آلامه ، ولم تتبلد عواطفه الأخرى ، ولم يسقط من يده قوس قيثارته .. شاعر الورع (فى « حكمة ») هو نفسه شاعر الحب والألم والموسيقى .

حين بدأ ڤيرلين انتاجه كانت المدرسة البرناسية فى أوج تألقها ، فلم يسلم من تأثيرها ، وإنما سار — على العكس — فى ركبها . وهو لا ينكر هذا بل يعترف به صراحة فى تلك القصيدة التى ذيل بها أشعاره « الزحلية» (Poèmes saturniens) ؛ يضاف إلى ذلك أنه نشر أولى أشعاره فى « البرناس المعاصر » (Le Parnasse contemporain) ... وقبل أن نستشهد بعدة أبيات من القصيدة التى نشير إليها يتحتم علينا أن نذكر أن المدرسة البرناسية جاءت وليدة رد فعل الرومانسية : أهم مايقال عن اتباعها انهم على عكس الرومانسيين (باستثناء ڤيكتور هوجو وتيوفيل جوتييه) يحرصون على كمال الشكل فى أدق تفاصيل فنهم ، وأنهم يهتمون بالطبيعة لذاتها ، لا لمجرد تأثيرها فيهم(على عكس الرومانسيين أيضاً الذين كانوا يتجمعون مثـــلا ليشهدوا غروب الشمس !) ، وانهم يعبرون عن عواطفهم الخاصة ولكن فى حياء ، بحيث يأبون أن يقدموا من قلوبهم غذاء للجمهور !.. ولنستمع الآن إلى « ڤيرلين » :

* إن ما يتحتم علينا نحن عظماء الشعراء

. . . .

* الذين ننقش الكلمات كالكؤوس

* وننظم بفتور شعراً فيه انفعال ،

* نحن الذين لا يشاهدنا أحد فى المساء جماعات

* متجاوبة على شواطئ البحيرات ومغشيا علينا —

. . . .

* هو الاصرار ، هو الارادة .

* ما أتعس الناس ! إن الفن ليس فى تشتيت النفس

* أتمثال ڤينوس ميلو من الرخام أم من مادة أخرى ؟

أى لا يهم أن نعرف هل تمثال فينوس مصنوع من الرخام أو غيره من المواد ، لأن شكله يثير إعجابنا.. كيفما كانت المادة التى قُدَّ منها ... ولقد تأثر ڤيرلين — من غير شك — ببودلير ، وحدا به تحمسه لأستاذه إلى أن ينشر عنه فى مجـــلة « فن » (Art) دراسات تفيض بالإعجاب (١٦ و ٢٠ نوفمبر — ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٦٥) ، الأمر الذى أكد لصاحب « أزهار الشر » أنه صار صاحب مدرسة لها أنصار : فلقـــد كتب إلى أمه يقول (٥ مارس ١٨٦٦) : « إن لدى هؤلاء الشبان نبوغاً، ولكن ما أكثر مظاهر جنونهم !.. بالألوان المغالاة ، وبالولع الشباب ! ؛ لقد فاجأتُ منذ

عدة سنوات هنا وهناك أنواعا من التقليد واتجـاهات تفزعنى . . . ولست أعرف شيئا أضر من المقلدين . إننى لا أحب شيئاً أكثر من أن أظل وحيدا .. ولكن ليس هذا بالأمر المتاح ، إذ يبدو أن مدرسة بودلير قد وُجدت » ... وليس « بودلير وحده هو الذى أحس بتأثيره فى « ڤيرلين » ؛ فلقد كان هذا التأثير من الوضوح بحيث لم يفت كثيراً من النقاد أن يشيروا إليه : منهم الأعداء أمثال « دورڤيلى » (Barbey d'Aurevilly) الذى يتحـدث عنه بسخرية لا تُعْدِى ، فيقول : « ... بودليرى متزمت .. توافق غريب له شكل جنائزى .. خلو من مواهب بودلير .. لديه هنا وهناك بعض ومضات هوجو وموسـيه .. هاهو ڤيرلين ، ولا شيء أكثر من ذلك ! » .. ومنهم الأصـدقاء المتحفظون أمثال « سانت بيف » (Sainte-Beuve) الذى يعطف على الشاعرين وان كان يقف حائرا أمام انناجيهما ، إذ أن الشيخوخة تجعل من العسير عليه أن يسيغ مايأتى به الشباب من جديد جسور : كتب إلى ڤيرلين يقول حين تلقى منه نسخة من ديوانه « أشعار زحلية » : « ... إن الناقد والشاعر فىّ يتضاربان بشأنك .. وإن أكثر الآذان تأقلما مع الشعر لتحار ؛ فلكل شيء حد .. عليك ألا تبدأ بالاقتداء ببودلير ، هـذا الطيب المسكين ، حتى لا تذهب بعد ذلك إلى أبعد منه ... » .

شيئان على الأقل يعتمد عليهما تجديد « ڤيرلين » فى الشعر ، هما الموسيقى السخية والتحرر من قيود البلاغة الرومانسية : يقول فى « فن الشعر » : « عليك بالمزيد من الموسيقى ، ودائماً » — كما يقول : « امسك بالبلاغة والْوِ عنقها » .. ومن هذين العنصرين تتفرع تقريباً جميع عناصر التجديد الأخرى ، تلك العناصر التى تتعلق بشعرٍ يختلف فنه — بالطبع — عن فن الشعر العربى ، والتى يكون من الإلغاز والتحذلق أن نتكلم عنها فى هذا المقام ؛ حسبنا أن نقول مع « چول لوماتر » (Jules Lemaître) إن لڤيرلين أشعـاراً تتغلغل حلاوتها فى النفس ، وتؤثر بأشياء ثلاثة مجتمعة : سحر النغمات ، وصفـاء العاطفة ، وشبه الغموض فى الألفاظ .. ويضيف هذا الناقد قوله : « ربما يمكن القول إنه الشاعر الوحيد الذى لم يعبر إلا عن عواطف وانفعالات ترجمها لنفسه وحده ... هـذا الشاعر لم يتساءل أبداً إذا كان سيفهمه أحد ، ولم يُرد أبداً أن يبرهن على أى شئ » .... من هنا نبع شعره من نفسه فى يسر ، ولم يسبب له خلقه أدنى عنـاء ... ومن هنـا عبر بكل ما استطاع من دقة عن الحالات العـابرة التى كانت تطرأ على حساسيته . إن لديه « تلقائية عاطفية تخلو من أى عنصر عقلى » ... هبط إلى أعماق نفسـه فكشف عن كثير من النزوات ، ولكن أيضاً عن بعض الجوانب الطيبة ، واعترافاته الساذجة بآثامه تثير الإشفاق ، الأمر الذى يشفع له ، لا امام القانون الوضعى ، فلقد حُكم عليه بالسجن مرتين باسم هـذا القانون ؛ ولكن لدى الضمير الانسـانى الذى إن لم يمنحه الصفح كله فعلى الأقل نصفه !... لقد استطاع ڤيرلين فى وقت من الأوقات — وبالرغم من وهن عزيمته — أن يلم شعث نفسه فعاد إلى الإيمان ، ولكن بقلقِ مَنْ يخشى النكسـة ، وبأمل من يتوق فى وجلٍ إلى الغفران ... ثم راح ضحية غزائزه من جديد بعد أن ترك ديوانه « حكمة » الذى ربما يواسيه الآن بعض الشئ فى قبره ! . .

« ڤيرلين » شاعر الألم .. ليس هو الوحيد الذى تألم فى حياته ؛ فالحياة لن تكف عن إصابة الإنسان بالكدمات ما بقى فى الوجود ... ولكننا نكاد نؤمن بأن هنـاك أناساً تلحق بهم اللعنة وهم فى مهادهم ، وكأنهم وُلدوا ليألموا طول حياتهم التى يصارعونها قبل أن تصرعهم ، أو يذعنوا لصدماتها المتلاحقـة

إذعاناً ظاهرياً يحجب عن الأنظار ثورات نفسية تضنى الجسد وتختصر العمر .. و« ڤيرلين » أحد هؤلاء ، ولقد رزق موهبة التعبير عن الآلام ، تلك التي يحسها ويحسها مثله كثيرون ، وإن كانوا لا يستطيعون أو لا يحسنون مثله الإفصاح عنها . . وفصيلة « التعساء الابديين » تجمعهم رابطة الألم ، وإن اختلفت أنواعه : « الفريد دى موسيه » و« ڤيرلين» مثلا ينتميان إلى هذه الفصيلة ، ولكن الأول كان يعانى بصورة متصلة من مشاكله العاطفية ؛ أما الآخر فكان يئن من اسوأ أنواع الانحراف ، ومن عجزه عن حماية نفســه من نفسه .. وهو صادق فيما يحكيه عن ذلك فى شعره ، الأمر الذى يجعل البائسين أمثاله يشاطرونه بؤسه ، ويدفع « السعداء » إلى أن « يقيسوا مدى البؤس الذى نجوا منه » لحسن حظهم .. فأشعار « ڤيرلين » لها القدرة على الاستمالة بفضل طابعها الإنسانى الأصيل ؛ يقول فى قصيدة عنوانها « المقهورون » :

* ما دام مصيرنا كلا لا يتجزأ
* والأمل قد ذوى ، والهزيمة محققة
* وأضخم الجهود عقيما ،
* وما دامت هذه الأمور محتومة ، حتى بالنسـبة لبغضائنا ،
* فما علينا إلا أن نستسلم لموتٍ مغمور لا ضجة فيه،
* مثلما يجدر بمن يُهزمون فى المعارك الكبرى .

وهو شاعر الحب ، الذى قال : « إن بى جنون الحب ؛ وإن قلبى لشديد الضعف والجنون » . . . الحب الذى تسرى فيه نفحة دينية ، :

* فى بساطة ، كما يُصب عطرٌ على لهب ،
* وكما يبذل جندى دمه من أجل الوطن ،
* بودى لو استطعت أن أضع قلبى وروحى
* فى نشيدٍ إلى القديسة العذراء مريم

والحب الذى يُنسِى نزغات الجســد ويرنو إلى التوازن فى الحياة بين المادة والروح :

* كنتُ أسير فى طرق خداعة
* متردداً والألم يملأ جوانحى ،
* فجاءت يداك العزيزتان نبراساً لى .
* فى شحوب شديد بالأفق البعيد ،
* كان يلمع أمل ضعيف فى الشروق
* ثم كانت نظرتُك الصباح .

ولكن « ڤيرلين » — قبـل كل شىء — شاعر الموسيقى .. الموسيقى أبرز سمات فنه وأكثرها أصالة.. وهو لا يكف عن المناداة بها فى الشـعر : « عليك بالموسيقى قبـل كل شىء » — « عليك بالمزيد من الموسيقى ، ودائماً » .. ألفاظه تتحرر من جميع القيود، وتنطلق بأجنحةٍ إلى الأثير حيث تتحلل وتستحيل إلى نغم صرف .. وهذا السحر ليس وليد تقليد ، وإنما هو من وحى طبيعته الشفافة ونفسه المرهفة .. ويمكن القول إن أشعاره تسجيلٌ لأصوات كان الشاعر يستجيب لها فى غير مقاومة ؛ من هنا كانت — كما قلنا — تنبع سيالةً فى يسر . ولعل الأبيات التالية تبرز أحد مقومات فنه وإحدى مواهبه الفريدة أكثر من كونها توجيهاً إلى الشعراء يمكن أن يسيروا على هديه فى إنتاجهم ، ذلك لأن العبقرية لا تلقَّن . . يقول فى « فن الشعر » :

* عليك بالمزيد من الموسيقى ، ودائماً !
* ليكن شعرك شيئاً طائراً
* نحس به وهو ينطلق من نفس
* نحو سموات أخرى ، وألوان أخرى من الحب .

يقول « چول لوماتر » : « إن لدى هذا الطفل موسيقى فى نفسه ؛ وهو يسمع فى بعض الأحيـان أصواتاً لم يسمعها أحد من قبله » .. سنرى بعد حين أن هذه الأصوات لم يسمع مثلها أحد من بعده

كذلك ! .. هذه الأصوات الخفية التى ينقلها بموسيقى إلهية موحية تتسلل إلى النفوس لتمس نياط القلوب !.. إنها تهز كآبتنا أكثر مما استطاعت أن تهزها غنائية كبار الرومانسيين أمثـــال ڤيكتور هوجو ولامرتين (Hugo-Lamartine) .. أشعار « ڤيرلين » غذاء روحى : تشنف الآذان ، وينبغى أن تغمض لهـــا العيون ، لتسمع كالموسيقى فى جوٍّ نفسى لا تفسده صور الحسيات !

* * *

ثم إن هذه الأشـــعار سجل خالد للانفعالات الإنسانية .. فيه يغنى الشاعر للناس ويعبر لهم عما يتجاوب مع نفوسهم ؛ وهنا مظهر العمق ، ومظهر الإعجاز ... قرؤوها فثملوا ؛ وفُتن كثير من الشعراء بما فيها من سحر فحاولوا التمرن على التعاليم التى صبها صاحبها فى « فن الشعر » ، ولكنهم أخفقوا ؛ ألم نقل إن العبقرية لا تُلقَّن ؟ .. إن الشـــعر ليس ألفاظاً فحسب، وإنما هو كائنات حية تستمد من الشاعر الحياة.. ولو أن شعراء غير « ڤيرلين » وفقوا فى حل لغز إعجازه لاعتُبر صاحب مذهبٍ جمالى جديد له أتباع يطبقونه .. ولكن عبقرية « ڤيرلين » جعلت منه ــ كما أشرنا ــ صوتاً وغناءً : صوتاً لا ينقطع ، وغناء حزيناً يتجه تواً إلى القلوب فيداويها « بالتى كانت هى الداء » ! . . . فُتن كبار مؤلفى الموسيقى أمثـــال « دوبوسى » (Debussy) و « جابريل فوريـــه » (Gabriel Fauré) بما فى هذه الأشعار من سحر فترجموا الكثير منها إلى أنغام خالدة ، بل ولا يزال « ڤيرلين » يشغل بعض الموسيقيين المعاصرين .

لم يسلم « ڤيرلين » من ألسنة من كان بينه وبينهم عداء مذهبى أمثال « مورا » (Maurras) الذى كتب بعد وفاته بشهر فى صحيفة « القلم » (La Plume) (فبراير ١٨٩٦) يقول : « بول ڤيرلين يترك اسما كبيراً ؛ ولكنى لا أعرف إذا كان يترك إنتاجاً . . يجب أن نحتفظ من ڤيرلين ببضعة أشعار متفرقة رائعة.. لقد كان الرومانسيون يطالبون بحرية الفن فمارس هو هذه الحرية ، وبحماسٍ وحشى مجنون . . لقد أضاع اللغة، وأفسد الأسلوب، وأحال الفكر إلى عدم .. » ! .. عداء مذهبى كما قلنا ! ؛ وهو أعجز من أن ينال من مجد « ڤيرلين » ... ما هى القيمة الحقيقية لإنتاج هذا الشاعر العبقرى ؟ وما مدى تأثيره فى التراث الإنسانى؟ــ لعل أجدى وسيلة لمعرفة الإجابة عن هذين السؤالين هى أن ننصت إلى بعض الجادين من كبار النقاد :

« أندرية دينار » (André Dinar)

« فيكتور هوجو ، لامرتين، الفريد دى موسيه ، الفريد دى ڤينى يقدمون عدة مظاهر للرومانسية : فخامة ومسرحية عند هوجو . . صوفية ووعياً عند لامرتين .. رقة وألماً وغرابة عند موسيه .. صرامة وفلسفة ومرارة عند ڤينى .. ولكن مَنْ من هؤلاء المغنين الأربعة عثر على هذه النغمات المنسجمة (نغمات ڤيرلين) ؟ مَنْ منهم أطلق هذه الصيحات التى تنطق بالحب والضيق بهذه الوسائل البسيطة التى تميز ڤيرلين؟ »ــ « .. من البديهى مثـــلا أن « هنرى دى رينييه » (Henri de Régnier) يدين لڤيرلين بأكثر مما يدين به « لمالارمييه » (Mallarmé) بالرغم من أنه كان أكثر مواظبة على حضور اجتماعات شارع روما منه على التردد على المقاهى التى يغشاها ڤيرلين ... إن بينهما كل صلة الأبوة التى يمكن إقامتها بين العبقرية وبين النبوغ الكبير .. لم ينقص « هنرى دى رينييه » سوى ذلك الألم الذى ذاقه ڤيرلين ... » ... « . . علينا ألا ننسى كيف أن « ڤيرلين » هو الذى أعد حملة الرمزيين بأن وجه اهتمام الشعراء الشبان إلى شخصية «مالارميه» فى « أشعاره اللعينة » ... حين ظهر هذا الديوان الصغير فى عام ١٨٨٤ تطلع جيل بأسره إلى التجديد فى

الشعر ... لقد كان « ڤيرلين » و « مالارميه » ضوءين فى الليل ، ضوءى فجرٍ بازغ قادا رمزيي المستقبل ، ودلاّهم إلى حد ما على الطريق القويم » .

شارل موريس (Charles Morice)

إن انتاجه « سيميل باطراد إلى الموضوعية ، وسيترك صدى أعمق أنين أطلقته النفس الانسانية فى العصر الحديث » .

« كوبيــه » (Coppée)

« ما أسعد الشاعر الذى يحتفظ — مثل صديقنا المسكين — بنفسه الصبية ، وبنضرة أحاسيسه .. إن اسمه سيوقظ دائماً ذكرى شعرٍ جديد على الاطلاق ، شعرٍ اتخذ فى الآداب الفرنسية أهميةً تعدل الاكتشاف .. نعم لقد خلق « ڤيرلين » شعراً يميزه هو وحده ، شعرا يصدر عن وحى ساذج دقيق معاً .. وهو فى هذا الشعر الذى لايبارى يعبر لنا عن جميع طاقاته ، وجميع آثامه ، وكل وازعه ، وكل مظاهر رقته ، وكل أحلامه ... لقد أظهر لنا نفسه المضطربة بالغة السذاجة مع ذلك ... إن مثل هذه الأشعار وُجدت لتبقى » .

« موريس باريس » Maurice Barrès

« إن أهم ماكان فيه قدرته على الاحســاس ، والتأثير بآلامه فى الآخرين ، وجســارته السافرة ، وهذه المظاهر من الجمال الرقيق المحزن معاً ... كل هذا لايزال حيا ... وان هذا الذى لم يعد شيئاً فى هذا التابوت ليحيا فى نفوسنا جميعاً نحن الحاضرين هنا »

« انا طول فرانس » (Anatole France)

(بالرغم من قسوته المقنّعة) :

« لا ينبغى أن نحكم على هذا الشاعر كما نحكم على إنسان عاقل ... إن لديه أفكاراً لا نملك مثلها ، لأنه أكبر منا بكثير ، وأقل منا بكثير فى نفس الوقت... انه شاعر لا يجود قرن كامل بواحد مثله ... ستسأل : أمجنون هو؟ — انى أعتقد ذلك ... ولكن حذار ! فان هذا المجنون المسكين قد خلق فنا جديدا ؛ و هناك أمل فى أن يقال عنه ذات يوم مايقال اليوم عن « فرانسوا ڤيون » (François Villon) الذى يحب تشبيهه به ، أى : « لقد كان أحسن شعراء عصره »

« لوران تاياد » (Laurent Tailhade) :

« بول ڤيرلين أكبر شعراء القرن التاسع عشر بدون استثناء ڤيكور هوجو » .

من ديوان (حكمة)

تتطاب الخطة التى رسمتها سلسلة « تراث الانسانية » أن يذيّل كل بحث فيها باستشهادات من المؤلّف الذى تنصب عليه الدراسة ؛ ونحن — كعادتنا — لن نشذ هنا عن هذه الخطة ، وإن كنا نشعر بأن أشعــار « ڤيرلين » تفقد بالترجمة أهم مقوماتها ، وهو تلك الموسيقية الفريدة التى لم يعرف الشعر الفرنسى مثلها قبل هذا الشاعر الفذ .. علينا — مع ذلك — أن نقنع بالقدر التالى :

يا إلهى لقد جرحتنى بالحب ؛
ولا يزال جرحى ينتفض ؛
يا إلهى لقد جرحتنى بالحب

يا إلهى أصابتنى خشيتك ،
واللذعة لا تزال ترن ؛
يا إلهى اصابتنى خشيتك

يا إلهى لقد عرفتُ أن كل شئ حقير ،
واستقرت عظمتك فى نفسى ؛
يا إلهى لقد عرفتُ أن كل شئ حقير

اسألك أن تُغرِق روحى فى نبيذك الغزير ،

وان تقيم حياتى بخبز مائدتك ؛
اسألك أن تُغرِق روحى فى نبيذك الغزير

ها هو دمى الذى لم أرِقْه ،
ها هو لحمى الذى لا يستحق الألم ؛
ها هو دمى الذى لم أرقه

ها هو جبينى الذى لم يستطع إلا أن يحمر ،
انه لِكرسىِّ قدميك المعبودتين ؛
ها هو جبينى الذى لم يستطع إلا أن يحمر

ها هما يداى اللتان لم تعملا ،
انهما للجمر والبخور النادر ؛
ها هما يداى اللتان لم تعملا

ها هو قلبى الذى خفق سدى ،
انه ليرجف من آلام العذاب ؛
ها هو قلبى الذى خفق سدى

ها هما قدماى اللتان كانت لها جولات عابثة ،
انهما للإسراع حين يرتفع صوت رحمتك ؛
ها هما قدماى اللتان كانت لها جولات عابثة

ها هو صوتى الكاذب الكريه ،
انه لِلَّومِ الذى يفرضه العقاب ؛
ها هو صوتى الكاذب الكريه

ها هما عيناى مشعلا الضلال ،
انهما لِتُطفَآ بعبرات الدعاء ؛
ها هما عيناى مشعلا الضلال

واحسرتاه ! أنت يا رب القربان والعفو ،
ما هو بئر جحودى . .
واحسرتاه ! أنت يا رب القربان والعفو

يا إله الهول والقداسة ،
واحسرتاه ! هاهى هوة جرمى السوداء ؛
يا إله الهول والقداسة .

انت يا إله السلام والفرح والسعادة ،
هاهى كل عبراتى ، وكل مظاهر جهلى ؛
انت يا إله السلام والفرح والسعادة .

انك تحيط بكل هذا ، بكل هذا ،
وتعلم اننى اكثر الناس مسكنة ؛
انك تحيط بكل هذا ، بكل هذا .

ولكنى اعطيك — يا إلهى — كل ما عندى .